

الحوار المثمر بين الثقافات : الجدور، المقاصد، الآليات¹

د. محمد بوزغنية²

تقديم

الحوار بين الثقافات ضرورة معرفية ملحة في هذه الأيام الكبيسة من أجل أن تعيش البشرية في أمن واستقرار. ومن هذا المنطلق رأت جمهورية الجزائر الشقيقة المتمثلة في رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، ضرورة استمرار مشروع حوار الحضارات والأديان والثقافات، باعتباره مشروع الإنسانية جمعاء التواقّة إلى صون عزّة الإنسان وكرامته من أجل العيش والتعمير والإبداع، وستشمل ورقتي الموسومة بـ : "الحوار المثمر بين الثقافات" النقاط التالية :

- الجدور : سأركّز من خلالها على تقديم النصّ الشرعي التأسيسي المنادي بضرورة محاورّة الآخر والإلماع إلى الجدور التاريخيّة المنفذة لذلك.
- المقاصد : الأسباب الداعية للحوار وخصوصا في هذه الأزمان.
- الآليات : أساليب الحوار والتأجج والمقترحات.

1. محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي حول شروط الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات المنعقد سنة 2003 م.

2. أستاذ بجامعة الزيتونة، تونس.

الجدور

إنَّ سُنَّةَ الحوار شرط لكي تقوم الأمة بدورها في بناء الحضارة، فالمساحة التي خصَّصها القرآن الكريم للآخر تفوق المساحة التي تحدَّث فيها عن العقيدة والعبادة والأخلاق، لأنَّ هذه المراكز تتأصَّل بالحوار نفسه والحوار مع الآخر تكليف شرعيّ يقع تحت قاعدة بالتي هي أحسن، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾¹. تكليف شرعي مجرّد من الزّمان والمكان². ولقد أقرَّ الإسلام مبدأ المجادلة بالتي هي أحسن لكلِّ إنسان بوصفه إنساناً حتى ولو كان مشركاً أو وثنيّاً، فلا غرابة في تخصيصه أهل الكتاب بأرفع آداب الجدل والنقاش³.

- يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁴.
- وقال جل ثناؤه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾⁵.
- وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾⁶.

1. سورة آل عمران، الآية 64.

2. الكيلاني هيثم: "دور المجموعة الحضارية الإسلامية في مشروع حوار الحضارات"، ص 290، 291.

3. صالح ضبيحي: "الإسلام ومستقبل الحضارة"، ص 258.

4. سورة العنكبوت، الآية 46.

5. سورة يونس، الآية 99.

6. سورة هود، الآية 118.

- وقال أعزّ من قائل : ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾¹.

فالأديان السماوية تنهل جميعا من مصدر واحد وهو الله تبارك وتعالى، وهي تضاء بمشكاة واحدة هي نور وهداية، ولقد ساهمت جميعها في تطوير المناهج الكبرى مثل العدالة والمساواة والأخوة وحقوق الإنسان، وجاء الإسلام الخاتم ليكملها. فكل الأديان إذا ترجع إلى مرجعية واحدة المولى تعالى، وسيدنا إبراهيم يجمع الديانات الروحية، وهناك تقارب كبير بين المسيحية والإسلام بشهادة كبار رجال الدين المسيحي والمفكرين المسلمين، الذين اجتمعوا في عدة ندوات عالمية منذ سنة 1970 م، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّثُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾². وقوله : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾³. تثبت هذه النصوص التقارب الإيماني بين الأديان السماوية، ووصايا موسى عليه السلام مثلا تكون تراثا أخلاقيا مشتركا بين الأديان، فهو يقول : "أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تشهد على

1. سورة النحل، الآية 125.

2. سورة المائدة، الآية 69.

3. سورة المائدة، الآية 82، 83.

قريبك شهادة زور، لا تَشْتَه بيت قريبك، لا تَشْتَه امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا شيئاً مما لقريبك"¹. لقد نادى كل الأنبياء بهذه الأخلاقيات، وللتأكيد على التقارب بين الأديان، نجد أن الرسول ﷺ أثناء بداية الدعوة المحمدية يبعث صحابته إلى الحبشة، لأن رئيسها كان نصرانياً، وآية ﴿غلبت الروم﴾ تبين أن المسيحيين سينتصرون على المشركين من بلاد فارس، خرج الصديق وتلا الآية بقوة فرحاً بما سيتحقق للمسيحيين من نصر، لأنهم أقرب للمسلمين من غيرهم ﴿لِكُلِّ مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ﴾ تثبت اتفاق الديانتين على التوحيد ولكن لكل منهما شريعتهما ومنهاجها.

ومن جذور الحوار أنه لا إكراه في الدين، ومن باب أولى وأحرى أن لا إكراه في الرأي ولا إغلاق في شؤون الفكر، بل إن الاجتهاد هو المأمور به، والإسلام هو الدين السماوي الوحيد الذي جعل من الاجتهاد والتدبر والتفكير واجبا من واجبات المؤمن بشروط وضوابط تؤهل للقيام به، وما تعدد مذاهب السنة إلا مظهر من اجتهاد الفقهاء في فقه دينهم، والغوص على معاني ما جاء به من عبادات وما أوصى به من قيم وأخلاق².

فالحوار في الإسلام يعبر عن قيمة حضارية لأنه أسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة والوعظ والمحااجة والقول الحكيم، وهو السبب الرئيسي الذي أوصل الإسلام إلى أقاصي الدنيا، فتسامح صلاح الدين مثلاً مع

1. سفر الخروج نقلاً عن بورمانس: "هل للمسلمين والمسيحيين ما يقولونه"، ص 164.

2. القليبي الشاذلي: "من أجل إنشاء نظام تضامني بين الحضارات"، ص 34.

الفرنجة هو أنموذج حضاري جدير بالافتاء، والمجتمع الأندلسي بقي عند المؤرخين الأوروبيين مضرب الأمثال في التسامح وحسن التعايش بين مختلف الطوائف مع ضمان حرمة كل دين، ومنطقة الشرق العربي نشأت فيها الديانات الموحدة الثلاث، وقد عاشوا جميعا لعدة قرون في تواصل وتعاون وتفاعل في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

فالحضارة الإسلامية في مجملها لا تخرج عن إطار النشاطات الإنسانية وتفاعلها من أجل عمران الحياة على أساس توظيف حركة الأمم والشعوب ونشاطاتها لخدمة البشرية مسلمين وغير مسلمين، فالخالق الباري هو رب العالمين وليس رب المسلمين فقط¹.

يرى مالك بن نبي رحمه الله أن مكونات الحضارة من إنسان وتراب ووقت، لا يمكن أن تعمل عملها دون صاهر أو مركب يوائم بين روحها وجزئياتها وتوظيفها في أحسن الأحوال². ويقول الإمام محمد الفاضل ابن عاشور منوها بالحضارة الإسلامية وبسماحتها: "لقد امتازت حضارة الإسلام بالانسجام والأمن، وليس ذلك مقصورا على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين تأتلف بهما العناصر والطبقات، وتتقى بهما ويلات الحروب الاجتماعية، ولكن الانسجام والأمن اللذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية يتبدآن انسجاما وأمنا داخليين فرديين تأتلف فيهما المدارك الإنسانية، وتتقى بهما ويلات بين داخل النفس الإنسانية هي ويلات الحيرة والاضطراب وتنازع الأفكار

1. الكيلاني هيثم: "دور المجموعة الحضارية الإسلامية في مشروع حوار الحضارات"، ص 257.

2. مالك بن نبي: "شروط النهضة"، ص 16.

والعواطف وحرب بين المعقولات والعقائد، وتقسيم بين الروحانيات والماديات ومقتضيات المصالح وواجبات الأخلاق. وهذا المعنى السامي من الأمن والانسجام الذي هو أساس الدين الإسلامي وسر الحضارة الإسلامية يتبدى تكوّنه في الفرد بطريقة تربوية تعتمد على إيقاظ الحسّ الباطني، الذي يتوجّه به الفرد إلى تحصيل المدركات الأولى... بصورة يطمئن إليها اطمئناناً تاماً في غير حيرة ولا اضطراب حين تصبح وليداً من ذاته وقبسا من حسّه، فإذا استقرّ ذلك في نفسه أصبح أساساً تقوم عليه جميع مداركه الأخرى، ومحوراً تدور حوله¹...

فبالاستقرار النفسي والاطمئنان الروحاني أصبحت الحضارة الإسلامية مطالبة بتصدير رسالتها لكافة الإنسانية، أضف إلى ذلك موروثها المتكامل الذي أوجد مصطلحات تجسّسه التقدّم وتنظّمه، كمثل الاستخلاف والعمارة والضرب في الأرض والتدافع، فهذه المصطلحات كفيّلة بأن تشغل في المشروع التهضوي للأمة الإسلامية الذي يعتمد على أصول فقهية حضارية أساسها قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾².

فالحوار هو جزء من الكلام، وهو حركة دائمة للإبداع والتجدّد والتّضامن والتّغيير والوحدة في التنوّع. فما هي مقاصده؟

1. ابن عاشور محمد الفاضل: "روح الحضارة الإسلامية"، ص 10، 11.

2. سورة الروم، الآية 9.

مقاصد الحوار

إنّ الدّين الإسلامي من أعظم الديانات السماويّة وأكملها وأكثرها انتشاراً في العالم بين حضاراته المختلفة، فكيف نشأت أنّه دين حوار وتسامح، وأنّه يتكامل مع العلم ويتوافق مع الحداثة المستقلّة ويترافق مع التمدّن؟ إنّ شعوب العالم الإسلامي لا يمكن لهم النهوض والتقدّم بمعزل عن دينهم ويستوعبون قدرته على التجدّد والاجتهاد لأنّه يتكامل فيه النّقل والعقل والشرعية والعقيدة. وبعد أن تمّ استقلال الدول الإسلاميّة وتحرّرها من الاستعمار، أعلنت منظّمة اليونسكو مبادئ التعاون الثقافي الدولي سنة 1966 الذي نصّ على أن كل حضارة لها اعتبارها وقيمتها التي يجب المحافظة عليها، وكل شعب له الحق في تنمية حضارته، وعليه واجب هذه التنمية. وكل الحضارات بكل ما فيها من تنوّع واختلافات عميقة وتأثير متبادل في بعضها بعض جزء لا يتجزّأ من الإرث العام للبشريّة¹.

ومنذ السبعينات أقيمت عدّة جلسات حواريّة بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة². ودعا المفكر المسلم روجيه غارودي إلى حوار الحضارات في النّصف الثاني من السبعينات، فهو يرى أنّ حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردّها، قال: "إنّه قضية بقاء، لقد بلغنا حدّ الخطر، بل لعلنا تجاوزناه إنّ مهمّتنا بعد الفرص التاريخيّة الضائعة، وضياح أبعاد الرجل الغربي، هي استئناف حوار حضارات

1. الكيلاني هيثم: "دور المجموعة الحضاريّة الإسلاميّة في مشروع حوار الحضارات"، ص 251.

2. راجع نشرية الإسلام والمسيحيّة Islamo-Christiana.

الشرق والغرب من أجل وضع حدّ لحوار الذات الغربي الانتحاري، إدراك هذا النقص وإدراك ما ندين به للثقافات والحضارات غير الغربية، هو اليوم على ما نظنّ السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحاً خارج مأزق الموت"¹. وكانت الدعوة لحوار الحضارات قبل أحداث سبتمبر 2001 تتصّف بالعموميّة والإطلاقيّة، لكن بعد هذا الحدث التاريخي وقع الاهتمام بقراءة الدّين الإسلامي من طرف الآخر، وتشابكت دعوات المناوئين للإسلام الذين يريدون أن يلصقوا هذا الدّين بالتطرّف والإرهاب ومطالب النّخب المعتدلة الذين يبحثون عن التعرّف عن هذا الدين ومقاصده وأهدافه بكلّ موضوعيّة. ومن هذا المنطلق تعالت الأصوات للحوار الحضاري ولتقديم الرّؤى المختلفة قصد التقارب. وتطرح المنتديات التي تقوم بها الدول العربيّة والإسلاميّة إسهامات للإجابة عن السّؤال الذي طرحه ممثلون أمريكيّون على المثقّفين المسلمين، في الرّسالة الشهيرة المؤرّخة في 2002/02/12. وتطرح أيضاً إجابة عن أطروحات المتطرّفين من كلا الفريقين الغرب والشرق.

• صدام الحضارات

الغرب فتتان : الفئة المتطرّفة تتصلّ في الظاهر من أطروحة الصّدام الحضاري وتؤمن بها إيماناً راسخاً إلى حدّ الغلو، لأنّها تأتي بعد نظريّات ما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد والعولمة. تقول هذه الفئة على لسان الأمريكي نعوم تشو مسكي في ندوة الرّباط (أكتوبر 2001) : "لقد قمنا نحن الأمريكيين منذ قرابة مئتي سنة

1. روجي غارودي : "حوار الحضارات"، ص 23، 24.

بطرْدَ مواطنين أهالي البلاد أو تصفيتهم، أي ملايين الأشخاص وغزو نصف المكسيك، وخرّبنا مناطق في الكرايبي وأمريكا الوسطى، واجتياح هايتي والفلبين مخلفين 100.000 فلبينيًّا بهذه المناسبة، وبعد الحرب العالميّة الثانية زدنا من سيطرتنا على العالم بالكيفيّة التي يعرفها الجميع، لكنّنا كنّا دائما نحن الذين نقتل تقريبا، وكانت الحرب تجري خارج ترابنا الوطني"¹.

ولتكذيب نظريّات أهل الصراع نقول : يرى منظّرو الصّراع أنّ الفكرة انطلقت مع ماركس الذي قال بالصراع الطبقي، واعتبره أساس كل صراع في المجتمعات البشريّة، وقال باستمراره حتّى ينفجر في ثورة تجسّدُها الطبقة العاملة، وبذلك تقضي على التناقض الطبقي.

ثمّ ظهر فوكوياما الذي قال في كتابه : "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" بأنّ الصّراع البشري يقوم على أساس رغبة الاعتراف، واعتبر أنّ النّظم الغربيّة بفضل ما وفّرتَه للإنسان من متطلّبات كرامته هي أفضل ما توصّل إليه الفكر البشري لإنهاء حالة الصّراع في المجتمع، وتجاهل فوكوياما ممارسات الدول الغربيّة على الصعيّد الخارجيّ.

وجاء صامويل هنتنغتون، وأكّد على ضرورة صدام الحضارات لإعادة صنع النّظام العالمي. واستغلّ الإعلام المتعصّب هذه الأطروحات التي غدّتها هجمة 11 سبتمبر 2001. ومن الأطروحات المطالبة بتصعيد الصدام بين الحضارات، والتي غدّتها "زلاّت لسان" صدرت عن جهات رسميّة في الغرب مثل عودة الحروب الصليبيّة، ما جاء في كتاب

1. نقل عن إدريس هاني : "الأوهام المؤسّسة لحوار الحضارات"، ص 217.

الأمريكية شيرن هنتر : "مستقبل الإسلام والغرب" قولها : "إنّ الإسلام كان لأكثر من ألف سنة العدوّ الرئيسي للغرب المسيحي، والآخر المعادي له، وهذه الذاكرة الثقافية الراسخة لن يكون استحضار صورة العدوّ الإسلامي مفاجئا، لأنّ هنالك ميلا ثقافيا وتاريخيا لرؤية الإسلام عدواً لدى جانب كبير من النخبة والعامة في الغرب"¹.

ومن دعاة الصّدام أيضا المستشرق الأمريكي برنارد لويس الذي تنبأ بحتمية الصراع بين الإسلام والغرب مؤكداً على أنّهما نقيضان لا مجال للحوار بينهما.

وذهب الأمريكي بول كيندي إلى أنّ العالم الإسلامي عاجز عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين لأسباب عقدية ومجتمعية عميقة².

وذهب الفرنسي اليميني جون كلود بارو إلى أنّ قيم الحداثة والعقلانية التقدّية والفردية، وحقوق الإنسان مناقضة في الأسس لقيم الإسلام، وأنّ الإسلام هو الغرابة ذاتها.

ويبين الإسباني ماريانو اغيرا أنّ الغرب مسكون بهمّ البحث عن عدوّ جديد بعد انهيار المعسكر الشيوعي، وأنّ الإسلام هو المرشّح الوحيد لملء هذا الفراغ³.

ولقد نجحت الأجهزة الإعلامية الموجهة في تشويه صورة الإسلام لدى الرأي العام الغربي، ولعلّ المؤتمر الذي دعت إليه ألمانيا سنة 1995

1. شيرين هنتر : "مستقبل الإسلام والغرب"، ص 200.

2. بول كيندي : "الاستعداد للقرن الواحد والعشرون"، ص 266.

3. السيد ولد اباه : "خطاب صراع الثقافات"، ص 141 وما بعدها.

وموضوعه "أوروبّا والعالم الإسلامي" الذي وقع إلغائه رغم موافقة الدول الإسلامية على حضوره إلا دليل على نجاح الإعلام الموجه¹. إلّا أنّ الأصوات المتعلّقة تعالت رافضة الصّراع الذي يؤدّي بالإنسانية إلى الدمار، وقالت بضرورة فتح باب الحوار، فما وقع لأمرिका ألصق الإرهاب بالمسلمين الذين نادوا بالحوار قبل هذه الهجمة. وبين مطلب الحوار وقهمة الإرهاب بدأ مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب غامضاً.

● العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

مرّت هذه العلاقة بعدّة مراحل، فبعد هيمنة الحضارة على العالم لعدّة قرون، بدأت طلائع الاستشراق في نقد الحضارة الإسلامية بأسلوب تبشيري، ثمّ جاء الغزو العسكري الاستعماري الذي احتلّ الأراضي الإسلامية أيام حكم الرجل المريض، ثمّ خرج المستعمر بعد أن غرس الكيان الصهيوني في قلب الأمّة الإسلامية، وانتقلت العلاقة بين الحضارتين من محاولة الهيمنة الغربيّة الحاليّة إلى تفكيك ركائز وأسس الحضارة الإسلامية، ممّا حمل حضارتنا على أن تكون في وضع دفاعيّ خرج تغذيّه صحوة إسلاميّة مباركة².

أمّا لو نظرنا إلى تاريخ تأسيس الحضارة الغربيّة، فإنّ الثابت تاريخيّاً أنّ البعثات العلميّة أرسلت الأوروبيين للتعلّم في الأندلس، وبنى الأوروبيون حضارتهم عن طريق ترجمة العلوم الإسلامية بكلّ أنواعها وتخصّصاتها.

1. الكيلاني هيثم : "دور المجموعة الحضاريّة الإسلاميّة في مشروع حوار الحضارات"، ص 264.

2. أنظر م. ن : 272، 273.

فالغرب حاليًا يشعر بالحاجة للتعايش مع الآخر وبالحاجة للحوار معه، ولكن بهدف تحويل الآخر إلى سوق استهلاكية لمنتجاته، ومن ثم إعادة تشكيل الأخير قيمًا وأخلاقيًا وعقديًا وليس كما يريد الآخر أن يكون. فالآخر في رأي الغرب لا يحق له أن يفكر كما يريد أو يكون كما يريد، وإلا سيكون متمرّدًا لا يستحق أن يحاوره الغرب¹. فلا بدّ للأمة الإسلامية أن تحاور الشقّ المعتدل عند الغرب وخصوصًا رجال الدين المسيحي.

• الحوار الإسلامي المسيحي

إنّ التناقض بين الحضارتين لا يبنى على أساس الاختلاف بين الإسلام والمسيحية، إذ يتمثّل التناقض في حضارة تسمّى باسم دينها وحضارة تسمّى باسم موقعها الجغرافي، وهكذا يتمّ الحوار على مستويين مختلفين، أما لو تمّ الحوار بين الديانتين، وعوّلت كلّ واحدة على مخزونها الإيماني لتّم التقارب.

وليس المقصود من الحوار بين الديانتين التبشير أو الدّعوة، إنّما هدفه الأساسي هو معرفة الغير كما يريد الغير أن يكون لا كما يحلو لنا أن نتصوّر من خلال نصوصه وتراثه هو، لا فقط من خلال تصوّرنا نحن².

يقول الأسقف المسيحي بتونس فؤاد الطوّال: "لا يمكن للمسيحي أن ينتظر من المسلم أن لا يكون مسلمًا، ولا المسلم من المسيحي إلا أن يكون مسلمًا، بل على المسيحي أن يحترم أخاه المسلم في إسلامه،

1. علي مؤمن: "حوار المستقبلات الإنسانية"، ص 178.

2. سعد غراب: "وثائق عصريّة في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين"، ص 24.

وعلى المسلم أن يحترم المسيحي في مسيحيته، ومتى قبلنا الآخر بهذا الشكل، فالسبيل سالك أمام الحوار البناء والتعاون والمشاركة، وبهذين : الاعتراف والقبول بما فيهما من محبة وتعاون، ولا يضحي أي جانب بذاته وبما يميزه بل يفترض في صاحبه عمقا في الإيمان وثقة بالنفس تفسح المجال للتعامل مع الآخر بعيدا عن عقدة النقص أو الاعتلاء.

ويضيف الأسقف فؤاد الطوال : "نحن المسيحيين العرب نقول للعالم الغربي إن الإسلام ليس العدو، بل هو أحد أطراف الحوار الذي لا يمكن الاستغناء عنه في بناء الحضارة الإنسانية الجديدة. ونقول القول نفسه للشرق المسلم إن المسيحية في الغرب ليست عمداً بل هي طرف أساسي في حوار لا بد منه لبناء عالم جديد. إن المسيحيين في العالم العربي يتطلعون إلى أن يكونوا جسور حوار وتفاهم بين هذين العالمين المتقابلين".

واستشهد الأسقف طوال ببيان المجمع الفاتيكاني الثاني الذي جاء فيه. "وإن كانت قد نشبت منازعات وعداءات غير قليلة بين المسيحيين والمسلمين على مدى الأجيال، فإن المجمع المقدس يهيب بالجميع أن ينسوا الماضي، ويعملوا بإخلاص على إحلال التفاهم المتبادل بينهم، و يتعاونوا على حماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والسلام والحرية للناس أجمعين¹.

ولتقريب وجهات النظر بين أهل الديانات، فإن المسيحيين والمسلمين يختلفون في بعض المسائل العقديّة كألوهية عيسى عليه السلام ونبوّة محمد ﷺ، لكن يجب تجاوز هذه المسائل العقديّة، لأنّ القاسم المشترك هو عبادة الله الواحد، ولقد جاء في تصريح المجمع

1. فؤاد الطوال : "التجربة الراهنة للحوار بين الأديان"، محاضرة مرقونة.

الفاتيكاني الثاني الصادر سنة 1964 فيما يتعلّق بالإسلام قول الأساقفة المعتدلين : "تنظر الكنيسة أيضا بعين الاعتبار إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد الحي القيوم الرحمن القدير خالق السموات والأرض، والذي خاطب البشر، والذين يجتهدون في أن يخضعوا من صميم الفؤاد لأحكام الله حتّى ولو كانت خفيّة، كما خضع له إبراهيم الذي يشير إليه الإيمان الإسلامي بطيب خاطر، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمسيح كإله إلاّ أنّهم يجلّونه كنبّي ويكرمونه والدته العذراء مريم، بل وأحيانا يتتهلون إليها بتقوى، وعلاوة على ذلك فإنّهم يتقرّبون يوم الدينونة حيث يجازي الله جميع النّاس الذين يقومون من بين الأموات، وهذا ما يجعلهم يقدّرون الحياة الأبديّة ويعبدون الله خاصّة بالصلاة والزكاة والصوم"¹ وإنّ تبرئة اليهود من دم المسيح الّتي قال بها الحبر الأكبر يوحنا الثاني غايتها عند النصارى التقارب بين الأديان. ولكي نرتقي بالحوار علينا كمسلمين أن لا نعتبر كلّ المسيحيين مشركين لأنّ فيهم من لا يقول بالتثليث وبألوهيّة عيسى.

وإنّه لا الإسلام ولا المسيحيّة في تاريخهما الطويل يأخذان الصّدّام إيديولوجيّة مضادّة للآخر، إنّما الّذي أجج الصّدّام هو عوامل أخرى يجب أن توضع في إطارها التاريخي... واللافتة الجديدة للصدام ليس لها مبرّرا على الإطلاق لكنّها تقدّم الهيكل النظري الّذي يجعل كلاً من الإسلام والمسيحيّة يرى في الآخر شيطانا².

1. الجمع الفاتيكاني الثاني : "وثائق عصريّة"، ص 24.

2. العليان عبد الله : "من صراع الحضارات إلى تعايشها"، ص 23.

• تفتح الإسلام على بقية الحضارات

من مقاصد هذه الندوة أنّها تدعو إلى قيام حضارة إنسانية أساسها التسامح والتحاور، وتؤكد على أنّ الإسلام لا يعادي أي ثقافة ولا يدعو إلى الانغلاق، وأنّ الحوار لا يعني التراجع عن المبادئ الإسلامية لأنّ هذه المبادئ من الثوابت التي تحفظ هويّة الإنسان المحاور.

وإذا كانت هناك حضارة مرشحة لأن تحقّق السلم والوئام بين الحضارات من خلال التفاهم واقتباس المفيد فهي الحضارة الإسلامية، لأنّ عناصر الوسطية متوافرة فيها، لأنّ جميع الناس من خلق الله وأنّ الاختلاف بين الشعوب هو اختلاف طبيعي، فالحضارة الإسلامية هي المرشحة لفهم سائر الحضارات الأخرى، والتعايش معها تحت شعار "لا إكراه في الدين" وشعار الحوار بالتي هي أحسن. هذا الشعار الذي يعتبر شرطاً أساسياً في تجسيد حوار واضح المقاصد رغبة في الفهم المتبادل من أجل صياغة مشروع التفاهم بهدف تشجيع التضامن الإنساني العام، ذلك أنّ الحوار بغير هذه السبيل مفض إلى تمكين التعصّب وإعجاب كل صاحب رأي برأيه، والذي قد يفضي إلى أشنع من ذلك خاصّة في حال الاستفزاز المعرفي أو الحضاري الذي لا مبرر له في كثير من الأحيان.

وإنّ الفقه الإسلامي لا يكرّس الصراع كقانون تاريخي مطلق كما تقدّمه المدرسة الواقعية في الفكر الغربي، وفي الفقه الإسلامي إنّ التدافع سنّة من سنن الاجتماع البشري، كما أنّ فقّهه يختلف عن مفهوم الصراع، فالجهاد ليس صراعاً مع الآخر للقضاء عليه، وليس لتأكيد

هيمنة الثقافة ولكن لتحقيق الدعوة والرّسالة باعتبارهما موجّهين إلى
النّاس ليس بالإكراه والقسر.

ولم يعدّ تحاور الحضارات مجرد مبادرة يؤخذ أو لا يؤخذ بها، وإنّما
غدا ضرورة تفرض ذاتها، أمّا إذا اعتبرنا الإنسانيّة هدف كلّ عمل
جماعي، وإنّ العيش للإسلام بمفهومه المستفاد من الانتساب الإيماني،
عيش للإنسانيّة ومن ثمّ هو تأصيل للحوار من أجل الصالح العام لبني
البشر، في إطار رؤية مبناها تجاوز الإقصاء والنفي والتأسيس للاعتراف
المبادل كخطوة أساسيّة لتفعيل التعاون بطريق الحوار الهادف المبين
المقاصد والغايات¹. فما هي آليات الحوار الهادف والبناء؟

آليات الحوار

يقول روجي غارودي : إنّ الحوار بين الحضارات هو وحده الذي
يمكن أن يولّد مشروعاً كونياً يتّسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء
أن يخلع الجميع مستقبل الجميع².

فما هي الآليات المثمرة لمواصلة مشروع حوار الحضارات بغية تقوية
الجبهة المساندة للإنسان ولكرامته، ودفع الجبهة المعادية للبشريّة إلى
التراجع والانزواء؟

يجب أن يؤدّي الحوار إلى التّخفيض من مستوى سلبيّات الاختلاف
والرفع من مستوى إيجابياته ليكون الاختلاف في هذا الإطار رحمة
وخيراً ودافعاً للمراجعة المستمرة، ولا ينفرد المثقّفون ثقافة دينيّة

1. جيدل عمّار : "متطلّبات الحوار الحضاري"، ص 146 وما بعدها.

2. جارودي : "حوار الحضارات" ص 9 وما بعدها.

بالحوار، بل هي مهمّة المفكرين والكتّاب والأدباء والشعراء والمبدعين والإعلاميين والفنانين ورجال القانون، وكلّ من يمثل الثقافات الرئيسيّة والمؤثّرة في العالم، والحرص دائما على استثمار بعض الثغرات الّتي تبعث على الأمل لتذليل الصّعاب واستمرار الحوار. وتشمل آليّات الحوار صنفين : حوار إسلامي إسلامي وحوار إسلامي غربي.

1. الحوار الإسلامي الإسلامي

قامت منظّمة الإيسيسكو بإعداد ثلاث استراتيجيّات تهتمّ بموضوع الحوار الإسلامي الإسلامي، وسبل التقريب بين المذاهب الإسلاميّة ودور المسلمين في تصحيح صورة الإسلام في الغرب، واستفادة العالم الإسلامي من العلماء المسلمين في المهجر من أجل تفعيل إسهام هذه العقول المهاجرة، في تضيق الهوة الثقافيّة والعلميّة بين الحضارات¹. فمن آليّات هذا الصنف من الحوار :

- الخطاب الديني الموجه : للخطاب الديني أصول وأديّيات، وهو في حدّ ذاته يوجّه إلى الإيمان بالله وإلى محبة جميع النّاس ما داموا موحدّين وأتقياء، ممّا يخلق أرضيّة صالحة للحوار فيما بينهم، أمّا إذا تحوّل الخطاب الديني إلى تهجّم وتكفير متسرّع وتشويه للحقائق وتخطئة الآخر، فهو سيلحق الضرر بجميع الأفراد، ويقود إلى التعصّب الديني الّذي يتطوّر تدريجيّا ويغلغل الأحقاد ويؤسّس الضغائن بين أهل المذاهب وأهل الأديان. وهذا ما شاهدناه مثلا في أديّيات المنابر الدينيّة

1. التّوحيدي عبد العزيز : "رؤية الإيسيسكو للحوار بين الحضارات"، ص 44.

كالمساجد والجامعات حيث تنطلق التوجيهات الدينية. ويجب على المسلمين الابتعاد عن الخلافات الفقهية والمذهبية والحرص على أن لا تطغى هذه الخلافات الفقهية والمذهبية بحيث تعوق مسيرة التعاون والعمل المشترك مادام الاتفاق راسخا حول الأصول والثوابت، والعمل الجاد على إزالة الخلافات العقدية، وتفعيل لجنة التقريب بين المذاهب ومزيد تدعيمها.

- النظر إلى مشكلة التخلف لدى بعض الشعوب المسلمة باعتبارها من أعظم المشكلات تأثيرا على مختلف جوانب حياتنا ولا سبيل إلى التحضر إلا بمواجهة هذه المشكلة.

- ما تمخّض عن القمة الإسلامية التي انعقدت في طهران حول إنشاء صندوق عالمي إسلامي للزكاة يقوم على أسس النصوص الشرعية.

- مزيد دعم الإيسيسكو وتطوير أنشطتها لكي تؤدي دور الجهاز المتخصص بقضية هضبة العالم الإسلامي.

- بدأت منظمة المؤتمر الإسلامي في الثمانينات بتقديم مشروع الحوار بين المذاهب الذي تبلور في الجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

- توحيد القانون بتقنين الفقه الإسلامي عن طريق الجمع الفقهي المنبثق عن المؤتمر الإسلامي وتفعيل هذا المشروع المتعثر.

- على المجموعة الإسلامية أن تعيد صياغة مشروعها المستقبلي، وعليها أن تفرض مجموعة القضايا الخلافية على العقلية الإسلامية المرتبطة بالتاريخ أكثر من تعلقها بالرؤية الحضارية التي يرمي الإسلام إلى تأسيسها¹.

1. جيدل عمّار : م. ن، ص 148.

- العمل على تحويل العالم الإسلامي إلى كتلة حضارية وبشرية متكاملة ومتماسكة، وإعطاء الأولوية والأفضلية بين هذه الدول في مختلف مجالات التعاون والتواصل والتضامن وبالانطلاق من مفهوم الجامعة الإسلامية.¹

- إنَّ الصَّحوة الإسلاميَّة المتجسِّدة اليوم في العودة إلى أساس مكوّنات الحضارة الإسلاميَّة عمقا ورسوخا، مدعوة اليوم إلى بناء مشروع حضاري، بعيدا عن التشدّد يجعل من المسلمين قوّة قادرة على الإسهام في بناء الحضارة الإنسانيّة، إسهاما معترفا بالحضارات الأخرى ومقدّرا مساهماتها.

- تخصيص مجلّة فكريّة أكاديمية تابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي أو للجامعة الدول العربيّة، تساهم في دراسة قضيّة الحوار وتطوير المعرفة بها، وبناء التواصل بين المفكرين والباحثين حول الاهتمام بها، ثمّ تترجم للغات العالم.

- توحيد المناهج العلميّة بين البلدان الإسلاميّة، وجلب العقول المهاجرة واستغلال خبراتها وقدراتها للرقىّ بالأُمَّة.

2. الحوار الإسلامي الغربي

من آليات هذا الحوار توضيح صورة الإسلام المشوّهة التي رسمها رجال الدين المسيحيّ على أرضيّة من الجهل به وبرسالته ورسوله ﷺ، ومن التّحامل عليه وعلى معتنقيه والطّمع بأرضهم وخيراتهم والرّغبة في قهرهم، وعقد علاقات مع الطلائع الفكريّة الغربيّة النيرة لفتح قنوات

1. زكي الميلاد : "من أجل بناء نظريّة حوار الحضارات"، ص 119، 120.

الحوار مع القوى الأجنبية، من الآليات الإيجابية التي تبحث على السلام العالمي وتغليب العقلانية السياسية على الهمجية المنادية للحرب. إن الرسالة الأخلاقية التي وجهها البرلمان العالمي للأديان في شيكاغو عام 1993، والتي تعدّ حلقة الوصل بين أخلاقيات جميع الأديان والعقائد والمذاهب والفرق، واصطلح على تسميتها بالقاعدة الذهبية التي كان فحواها: "لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك" تدفع الإنسانية إلى التسليم بأطراف الحوار وبأن أسسه تنطلق من احترام الشعوب في الأخلاق وضرورة حماية التنوع الثقافي في العالم بوصفه تراثاً للإنسانية، يحقق للحضارات إمكانية التواصل. أما لو أصرّ الآخر على الصدام، فإن الردود يجب أن تكون بالحجة والبرهان فمن ذلك مثلاً:

- دور المؤسسات الإعلامية الموجهة مثل الإنتاج الهوليوودي الأمريكي الذي توزعه المحطات التلفزيونية في مختلف أنحاء العالم، وهو يحوي قيماً وأفكاراً خطيرة تتعلق بالشعوب المسلمة، كأن تشاهد مثلاً لقطة في ملهى ليلي ومن بين الحضور رجال يرتدون ثياباً خليجية، فهذه الموجة العدائية المتطرفة جزء من مخطط ثقافي وإعلامي يهدف لضرب العالم الإسلامي سياسياً وعسكرياً، حيث تحرص هذه الفئة على إلصاق قهمة الإرهاب بالعرب والمسلمين، وتصوّرهم في صورة شعوب همجية معادية للحضارة والديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان. كما نقرأ أو نسمع بعض النظريات الغربية التبشيرية المتطرفة وبعض الفتاوى المتشنجة التي تقدّم صورة مشوهة عن الأديان الأخرى، وتغرس الأحقاد لدى الأتباع مثل الأطروحات المناوئة للدين الإسلامي

كأطروحات سلمان رشدي، و نايول الحائز على جائزة نوبل لسنة 2001، والذي يدّعي بكل وقاحة أنّ الإسلام أسوأ من الاستعمار، فيجب الردّ على هذه الآفات ومكافحتها واحترام عقائد الآخر.

- فضح الأدب المبتذل الذي يشمل أدب الجريمة والإثارة الجنسيّة والرّعب وأدب الدّعارة والجاسوسيّة والمغامرات وأدب رعاية البقر وقصص الحبّ المبتذلة... وهدف هذا الأدب الظاهري هو التّسلية والإثارة ولكنه كثيرا ما يستخدم لنشر أفكار وقيم وصور عنصريّة تجعل المتلقّي يحقّر بعض الشعوب والأعراق ويتمنّى إبادةها، والمطلوب نقد هذا الأدب بجدية، واستغلال الأدب الغربي الهادف وكشف مساوئ الأدب العنصري، من ذلك مثلا ترجمة الأطروحات الأديبة التي تخدم التّعاش بين الحضارات، وتوزيعها وإدراجها ضمن برامج التعليم مثل مسرحيّة ناتان الحكيم الألمانيّة، التي قدّم فيها صاحبها ما يمكن أن يكون أنموذجا لتعايش أتباع الديانات والحضارات الثلاث الإسلاميّة والمسيحيّة واليهوديّة¹.

- تبادل الحوار في مناخ احترام، والانتباه إلى أنّ الإنسانيّة في خطر، مثل خطر الاستنساخ والتلوّث البيئي والسلاح النووي والزعامة السياسيّة، يجب استغلال اعتراف مفكّري الحضارة الغربيّة بأنّ الحضارة المعاصرة، وفّرت للإنسان راحة الجسم ولكنها لم توفر له راحة النفس. فالحضارة المعاصرة أنتجت الانحلال الخلقي والقلق النفسي والتفسيخ العائلي والاضطراب العقلي وانتشار الجريمة في غياب الروحانيات،

1. عبده عبّود : "الأدب وحوار الحضارات"، ص 122، 133.

يقول المؤرّخ أرنولد توينبي ناقدا هذا التطرّف: إنّ سياسات القوّة وتغليب منطق السيّطرة والصراع في العالم، هي التي تفرغ الحضارة من مضمونها الإنساني الروحي وتوقع بها، إلى أن تصبح أحادية ماديّة فيؤدّي بها الأمر إلى التردّي والأفول¹.

فيجب إذاً النّظر إلى حوار الثقافات كحاجة معرفيّة، فالحوار يجب أن لا ينقطع لأنّه كتيّار الرّيح والماء توفّر للأجواء النّقاء بالحركة، وتحقيق التّفاعل بالتّداخل، وتكسب الوجود تنوعاً. ويؤسّس الحوار للصداقة ويزيل بؤر التّوتر والعداوة الّتي غالباً ما تغذيها ترسّبات الأفكار السّلبيّة عن الآخر. وطالما أسّست المعرفة المشوّهة البغضاء والعداوة والحرب. وعندما يتجاوز الطرف الآخر حدود الحوار كممارسة الاضطهاد والتّهديد، فإنّ ديننا الحنيف يأمرنا بإيقاف التّحاور معه لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾² وحينما يدخل الحوار مرحلة العبث مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾³. يجب إيقاف الحوار بالّتي هي أحسن إلى أن يحصل التّكافؤ في إيصال الرّأي⁴.

1. شلود ماجد: "حوار الحضارات وآفاق المستقبل"، ص 91.

2. سورة النساء، الآية 63.

3. سورة البقرة، الآية 6، 7.

4. التّسخيري: "قيم الحوار والتّعايش في الرّؤية الإسلاميّة"، ص 74، 75.

الخاتمة

إنّ الحوار لا بدّ منه، فهو صعب ومحفوف بالشكوك ومن يخوضه سيتصدّى لأحكام مسبقة فلا بدّ من جرأة وتضحية ومبادرة من أجل إنجاح الحوار سواء بين أبناء الأمة الواحدة أو بين الأمم، فهناك سمات مشتركة تجمع ما بين الحضارات باعتبارها إنجازا بشريّا، ولقد استطاعت الحضارة الإسلاميّة وهي حضارة رويّة أن تتجاوز ماديّات الحضارات اليونانيّة والفارسيّة والرومانيّة، وجميعها حضارات ماديّة، وباستطاعتها أن تتجاوز الحضارة الماديّة الغربيّة المعاصرة، لأنّها حضارة مستمرّة لا تعرف الاندثار، فهي قد تتراجع عن الإسهام في صوغ الحضارة الإنسانيّة في فترة تاريخيّة محدّدة، لكنّها قادرة على التّهوض بالإنسانيّة نحو الأفضل، وإن فشل حوارها مع الثقافات الأخرى، وانتصر منطق الصّدّام عند الآخر، فإنّ وسائل الدّفاع عن الذات الفكرية والماديّة مشروعة، ولما يصرّ الآخر على تدمير الأمة الإسلاميّة فإنّ مبدأ الجهاد يكون آخر الحلول.

والله وليّ التوفيق، والسلام عليكم.

المراجع

1. بورمانس موريس : "هل للمسلمين والمسيحيين ما يقولونه أو يفعلونه معا في عالم اليوم"، دراسات إسلامية مسيحية - Islamo Christiana - المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية، روما.
2. التسخيري محمد علي : "قيم الحوار والتعايش في الرؤية الإسلامية"، ندوة كيف نواصل مشروع حوار الحضارات، دمشق 2002.
3. التويجري عبد العزيز : "رؤية الإيسيسكو للحوار بين الحضارات"، ندوة دمشق 2002.
4. جبدل عمّار : "متطلبات الحوار الحضاري"، ندوة دمشق 2002.
5. شذود ماجد : "حوار الحضارات وآفاق المستقبل"، ندوة دمشق 2002.
6. صبحي صالح : "الإسلام ومستقبل الحضارة"، دار الشورى، بيروت 1982.
7. الطوال فؤاد : "التجربة الراهنة للحوار بين الأديان وبيان معوقات هذا الحوار ومكتسباته"، محاضرة مرقونة ضمن ندوة مستقبل الحوار بين الأديان، جامعة الزيتونة.
8. ابن عاشور: محمد الفاضل : "روح الحضارة الإسلامية"، التّشريّة العلميّة لكلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين، عدد 1 س 1، 1971 تونس.
9. عبّود عبده : "الأدب وحوار الحضارات"، ندوة دمشق 2002.
10. العليان عبد الله : "من صراع الحضارات إلى تعايشها"، م العربي ع 532، مارس 2003 الكويت.

11. غارودي روجي : "حوار الحضارات"، ترجمة عادل العوّا، ط بيروت منشورات عويدات 1978.
12. غراب سعد : "وثائق عصريّة في سبيل الحوار بين المسلمين والمسيحيين"، نشرية دراسات إسلاميّة مسيحيّة 1992.
13. القليبي الشاذلي : "من أجل إنشاء نظام تضامني بين الحضارات"، ندوة تونس، الإسلام وحوار الحضارات، 2000.
14. كيندي بول : "الاستعداد للقرن الواحد والعشرين"، ترجمة محمد عبد القادر وغازي مسعود، دار الشروق 1993 عمان.
15. الكيلاني هيثم : "دور المجموعة الحضاريّة الإسلاميّة في مشروع حوار الحضارات" ندوة دمشق 2002.
16. مؤمن علي : "حوار المستقبلات الإنسانيّة"، ندوة دمشق 2002.
17. المجمع الفاتيكاني الثاني : "وثائق عصريّة في سبيل الحوار بين المسلمين والمسيحيين"، دراسات إسلاميّة مسيحيّة 1992.
18. الميلاذ زكي : "من أجل بناء نظريّة لحوار الحضارات"، ندوة دمشق 2002.
19. مالك بن نبي : "شروط النّهضة"، ترجمة كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1979.
20. هاني إدريس : "الأوهام المؤسّسة لحوار الحضارات"، ندوة دمشق 2002.
21. هنتر شيرين : "مستقبل الإسلام والغرب"، تع زينب شورب، ط بيروت 2000.
22. ولد أباه السيّد : "خطاب صراع الثقافات"، الخلفيات الفكرية والاستراتيجيّة ندوة تونس، الإسلام وحوار الحضارات 2000.